نظرية السياق عند البلاغيين العرب؛ دراسة نظرية

د. طارق أحمد آهنغر[١]
إشفاق أحمد واني[٢]

الملخص

استحوذ السياق على اهتمام كبير في الدراسات اللغوية الحديثة حيث يعد من أهم النظريات اللغوية التي قدمها اللغويون الغربيون في منتصف القرن العشرين. ولا شك في أن اللغة ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ولها ارتباط قوي بالمجتمع، فاللغة قد تأثرت ولا تزال تتأثر بالعادات والنظم الاجتماعية منذ بدايتها، ومن ثم لا سبيل من الوصول إلى المعنى المراد من الكلام أو النص إلا من خلال فهمه بإطار المجتمع الذي قيل فيه. ومن هذا المنطلق تعرف اللغويون المحدثون على أهمية السياق فصاغوا منه نظرية جديدة ذات أهمية بالغة وهي نظرية السياق. وقد فطن إليه علماءنا منذ قديم حيث نرى أنهم قد اعتنوا بالسياق أتم العيانة بعناصره كلها لا سيما البلاغيون منهم بتعبيرهم المشهور "لكل مقام مقال" و"مطابقة الكلام مقتضى الحال" تمثل إدراكهم البالغ بأهمية السياق، كما أن نظرية النظم تشير إلى وعيهم السياق اللغوي أيضا. وهذه المقالة تعالج قضية السياق ما يتجلى من البلاغيين القدماء كما تحاول إبراز الدور الذي نهضوا به في الدرس الدلالي.

الكلمات الدلالية: السياق، البلاغة، الدلالة، نظرية النظم، المقام، البلاغيون، السياق اللغوي، السياق الخارجي.

السياق في اللغة

١، الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة كشمير سري نغر، كشمير، الهند.

٢، الباحث في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة كشمير، سري نغر، كشمير، الهند.

اهتم العلماء بالسياق اهتماما بالغا ولا سيما البلاغيون. وقبل أن نبين مدى اهتمامهم بالسياق ووعيهم أهميته في الدرس البلاغي يجدر أن نعرف تعريف السياق لغويا واصطلاحا. وكلمة السياق كما قال ابن منظور مشتق من: "السَّوق: معروف. ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا، وهو سائق وسوّاق، شدد للمبالغة... وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت، وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة. وفي حديث أم معبد: فجاء زوجها يسوق أعنزا ما تساوق أي ما تتابع. والمساوقة: المتابعة كأن بعضها يسوق بعضا... وساق إليها الصداق والمهر سياقا وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما. وساق فلان من امرأته أي أعطاها مهرها. والسياق: المهر... قيل للمهر سوق لأن العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهرا لأنها كانت الغالب على أموالهم... وساق بنفسه سياقا: نزع بها عند الموت. تقول: رأيت فلانا يسوق سووقا أي ينزع نزعا عند الموت، يعني الموت".[١]

يمكن أن نستنبط من هذا أن السياق في اللغة: هو التلازم بين الشيئين بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر مع اتباع كل منهما صاحبه. فمعناه المعجمي يدور حول معنى التتابع والاتصال والتوالي والنظم والتسلسل كما يستخدم في معنى السرد في الحديث مجازيا. فسياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه.[٢] ولا بد أن يكون التتابع منتظما حيث يُبلغ إلى غاية محددة بدون انقطاع أو انفصال.

السياق اصطلاحا

لم ينص العلماء العرب القدماء على تعريف السياق اصطلاحا، وإنما نصوا

---

١ لسان العرب، ج١٠، ص: ١٦٦-١٦٧.

٢ ينظر: لسان العرب، ج، ص: ١٦٦-١٦٧، والمعجم الوسيط، ج١، ص: ٤٦٥.

على أهميته البالغة وأثره في ترجيح بعض المعاني على بعض، ومن ثم تنوعت الأقوال في تعريفه. فمن العلماء والباحثين من خصوه بسياق المقال دون سياق الحال ومنهم من ضم كليهما في تعريفه الاصطلاحي. والأرجح أن السياق يطلق على سياق المقال وعلى سياق الحال معا كما استخدمه كذلك بعض العلماء القدماء والمتأخرين أيضا.١ فعلى هذا يمكن أن نعرف السياق اصطلاحا بأنه: "**ما يحيط بالنص من قرائن لفظية وحالية لها أثر في فهمه ومعرفة الغرض منه**".

أنواع السياق

ينقسم السياق إلى قسمين وهما:

١. السياق اللغوي ويسمى: السياق الداخلي

٢. والسياق غير اللغوي ويسمى: السياق الخارجي.

السياق اللغوي/Linguistic Context

هو فهم الجملة أو الكلمة بين الجمل والكلمات السابقة واللاحقة لها في النص.

السياق الخارجي/غير اللغوي/Non-Linguistic Context

وهو الموقف الخارجي الذي تقع فيه الكلام فتتغير دلالته تبعا لتغير الموقف، ويمثل في الظروف الاجتماعية والثقافية والنفسية للمتكلم والمشتركين معا.

إن نظرية السياق ذات أهمية بالغة عند اللغويين الغرب. وإذا أمعنا النظر نجد أن جذور هذه النظرية كانت أوسع وأشمل عند العرب القدماء حيث عرفوها بعناصرها الكاملة وتحدثوا فيها بجميع جوانبها. وقد أدركوا أن اللفظ المجرد الخارج

---

١ ينظر: غريب الحديث، ج٣، ص: ٣١، وفتح الباري، ج٩، ص: ٩٧، والموافقات، ج٣، ص: ٤١٩-٤٢٠، والجملة العربية والمعنى، ص: ٦٣.

من السياق لا يكفي في الكشف عن المعنى، بل لا بد من فهمه من خلال السياق الذي ورد فيه. فلذلك تناول العلماء اللغويين، والنحاة، والبلاغيين، والأصوليين والمفسرين ظاهرة السياق بشتى جوانبه، وأفاضوا الحديث عنها خلال دراستهم النصوص لا سيما نصوص القرآن والحديث النبوي. وكان للبلاغيين حظ وافر في هذا المجال، فقد حظي "السياق" أو "المقام" بأهمية خاصة ومميزة عندهم وذلك من خلال مقولتهم التي تكررت في معظم مصنفاتهم البلاغية، وهي: "لكل مقام مقال"، "ولكل كلمة مع صاحبتها مقام"، فهي من جوامع الكلم التي تستجمع بدقة موضوع الدراسات البلاغية حتى أصبحت نقطة مركزية عند البلاغيين انطلاقا من فطنتهم أن الاعتبار على التعبير اللغوي وحده لا يكفي لعدم إحاطته بآليات البلاغة الكافية لتحسين الكلام وللوصول إلى الفهم الصحيح له. وفي هذا السياق يذكر تمام حسان أن البلاغيين عند اعترافهم بفكرة "المقام" كانوا "متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم؛ لأن الاعتراف بفكرتي "المقام" و"المقال" باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة".[١]

ويبرز عناية البلاغيين ومدى وعيهم بأهمية السياق من خلال ربطهم حد البلاغة ب-"السياق أو المقام والحال" حيث عرفوا البلاغة بأنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته".[٢] وهذا التعريف يبرز أهمية التطابق بين الكلام والحال أي المقام الذي يقع فيه لأن متقضى الحال مختلف، ومقامات الكلام تتفاوت فلا بد من اعتبارها عند الحدث الكلامي لأن عدم الاكتراث به سيخلل في فصاحة الكلام. وكان **ابن المقفع** (ت ١٤٥هـ)، أول من لمح إلى فكرة المقام حيث نقل عنه الجاحظ

---

١ اللغة العربية؛ معناها ومبناها، ص: ٣٣٧.

٢ الإيضاح في علوم البلاغة، ج١، ص: ٤١.

قوله: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة. فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل. فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز، هو البلاغة. فأما الخطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته. كأنه يقول: فرّق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح وخطبة التواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت. قال: فقيل له: فإن مل السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا **أعطيت كلّ مقام حقه**، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء. وأما الجاهل فلست منه وليس منك. ورضا جميع الناس شيء لا تناله".[١]

فيتضح لنا أن الكلام البليغ عند ابن المقفع ما كان مطابقا للمقام والموقف سواء كان طويلا أو قصيرا، كما ذكر فيه بعض عناصر السياق الأساسية الأخرى، منها: فكرة المقام، والإشارة، والسكوت وغيرها،

ومن خلال تتبع كلام البلاغيين في هذا الصدد نجد أن تأصيل فكرة المقام ومراعاة أحوال المخاطبين الاجتماعية والثقافية عند الكلام يرجع إلى جهود **بشر بن المعتمر** (ت ٢١٠هـ)، حيث جعل هذه الفكرة محورا أساسيا في صحيفته التي أسماها ((موضوع البيان))، فيقول فيها: "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة،

---

١ البيان والتبيين، ج١، ص: ١١٥-١١٦.

وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال".[١]

ويتضح منه أن البلاغة قائمة على دعائم ثلاثة، وهي: اللفظ، والمعنى، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، فليس ثمة تفاضل بين اللفظ والمعنى بل الشرف في موافقة الكلام لمقتضى الحال التي به تتحقق بلاغة الكلام، فحصول المنفعة مرهونة بالتطابق بين المقال والحال الذي يقتضيه، وقد أفصح عنه بقوله: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات".[٢] وقد خلص إلى تلك الحقيقة قائلا: "فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسميح والخفيف والثقيل، وكله عربي وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا".[٣]

يمكن أن نستشف من هذا القول إن الكلام "أقدار"، أي: درجات متنوعة ومختلفة، وهذه الأقدار هي:

١- **أقدار المعاني**: والمراد منه؛ أن المعاني تختلف وفقا لطبيعة الموضوع المتحدث عنه، فلا بد أن يطابق الكلامُ المعنى المقصود المراد به.

---

١ نفس المرجع، ج١، ص: ١٣٦.

٢ نفس المرجع، ج١، ص: ١٣٨-١٣٩.

٣ نفس المرجع، ج١، ص: ١٤٤.

٢- **أقدار المستمعين**: والمراد؛ أنّ المخاطَبين ليسوا على مستوى واحد؛ بل الناس طبقات، فيجب مخاطبة الناس وفق طبقاتهم المختلفة. وقد أفصح عنه أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) بقوله: "فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه؛ فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب".[١] فمستوى المتلقي وطبقته يفرض على المتكلم أن يخاطب مخاطبه بنوع خاص من الكلام الذي يناسب مستواه ويلائمه.

٣- **أقدار الكلام**: والمراد أن أسلوب الكلام يتنوع فليس للكلام أسلوب واحد بل له أنماط وأشكال متنوعة التعبير، فتعبير الكلام يختلف بحسب المتكلم والمتلقي، كما في الناس طبقات فكذلك لكلامهم طبقات، وكل إنسان يتكلم حسب مستواه، فثمة كلام السُّوقة، وكلام الحاضرة، وكلام البَدو، وكلام الحكام، وغيرها من الأنواع الكلامية، فلا يمكن أن يكون كلاهم على أسلوب واحد ومستوى واحد بل لا بد من أن يختلف كلامهم بحسب طبقاتهم، وهذا ما أفصح عنه بقوله: "فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقيّ رطانة السوقي".[٢]

٤- **أقدار الحالات/المقام**: والمراد أن الحال والمقام تختلف ولكل مقام نوع تعبيري خاص. وقد أفصح عنه السكاكي (ت ٦٢٦هـ) أثناء كلامه عن مفاصل الكلام وفق مقاماته بقوله: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام

---

١ الصناعتين؛ الكتابة والشعر، ص: ٢٩.

٢ البيان والتبيين، ج١، ص: ١٤٤.

البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر".[١]

فحالات الكلام تتعدد بما يقتضي تنوع المقتضيات التعبيرية. وهذا البحث يكشف لنا مدى اهتمام بِشر وإدراكه المتقن لفكرة السياق.

ومن أبرز البلاغيين القدماء الذين طبقوا هذه الظاهرة بكل معنى الكلمة أبو عثمان **الجاحظ** (ت ٢٥٥هـ) حيث أسهب الكلام فيها وذلك في كتابيه: ((البيان والتبيين)) و((الحيوان))، فجعل فكرة المقام محور تأليفه في البيان، وحث المتكلم على ضرورة اعتناء أحوال الملتقي تماما، ومعرفة مستواه، ومكانته، فيخاطبه على مقتضاه. وقد أوضحه بقوله: "وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضا في صناعة الكلام مع خواصّ أهل الكلام؛ فإن ذلك أفهم لهم عني، وأخفّ لمؤنتهم عليّ. ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بصناعتهم إلّا بعد أن كانت مشاكلا بينها وبين تلك الصناعة. وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلّمين في خطبة، أو رسالة، أو في مخاطبة العوام والتجار، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته، أو في حديثه إذا تحدث، أو خبره إذا أخبر. وكذلك فإنّه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب، وألفاظ العوامّ، وهو في صناعة الكلام داخل. ولكلّ مقام مقال، ولكلّ صناعة شكل".[٢]

يتضح من هذا النص أن للكلام مستويات لا بد من اعتبارها، وهي:

أ) مطابقة اللفظ معناه.

ب) مطابقة الكلام لمستوى المتلقين.

---

١ مفتاح العلوم، ج١، ص: ١٦٨

٢ الحيوان، ج٣، ص: ١٧٥

ج) مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ أي: أن يناسب الكلام لما يقتضيه الحال فيكون مطابقا للظروف والملابسات التي يجري فيه الكلام، ولا يتكلم بكلام يصعب المستمع فهمه فتفقد إفادة الكلام.

هذا، ومما يوضح مدى إدراكه للسياق اعتناءه بعناصر السياق، ويوضحه قوله: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصْبة. والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات... وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد".[١]

نستشف مما سبق أن الجاحظ كان على وعي تام بالسياق بأنواعه وعناصره كلها حيث أشار إلى أهمية اللفظ والصوت في الدلالة على المعنى، وهما من أهم عناصر السياق اللغوي كما أشار إلى إفادة الإشارة والحال في الفهم والتفهيم، وهما من عناصر السياق غير اللغوية. وفي هذا أبين دليل على أن الجاحظ قد سبق المحدثين في أهمية مراعاة السياق بأنواعه وعناصره كلها وأن بلاغة الكلام لا تتحقق إلا بمراعاة السياق اللغوي وغير اللغوي معا.

هذا ما كان يتعلق بالسياق الخارجي، وأما السياق اللغوي/الداخلي فقد اعتنى به البلاغيون أيضا، ويمثله في أوضح صورة نظرية النظم التي وضعه مؤسس البلاغة عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) حيث صرح بأن بلاغة الكلام إنما هو في نظمه، وأن أحسن وأفضل نماذجه القرآن، فإن أم إعجازه هو نظمه البديع الذي لا نظير له. والنظم كما يعرّفه بقوله بأنه: "تعليق الكلم بعضها ببعض، وجَعْلِ بعضها بسبب من بعض".[٢] ويقول عنه أيضا: "اعلم أن ليس ((النّظم)) إلا أن تضع كلامك

---

١ البيان والتبيين، ج١، ص: ٧٦

٢ دلائل الإعجاز، ص: ٧

الوضع الذي يقتضيه ((علم النحو))، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها".[١]

فالنظم عنده تأليف الكلام في سياق معين، فالكلمة لا تأتي في السياق على عشواء بل تأخذ موضعه من خلال علاقتها بغيرها من الكلمات المتلائمة بها. ويتبين من هذا أن **النظم له ارتباط قوي بالسياق**، وقد أفصح عنه بقوله: "وليس هو ((النظم)) الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشْي والتحبير وما أشبه ذلك، ممّا يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح".[٢]

وقد ذهب الجرجاني إلى أبعد من هذا حيث يرى أن الألفاظ لا تتفاضل بنفسها، فلا توصف اللفظة المفردة بالفصاحة إلا بحسن ملائمة معناها في سياق الجملة التي ترد فيه، وقد صرح به بقوله: "الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللّفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلّق له بصريح اللفظ".[٣] وقال في موضع آخر: "فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسُنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزيّة والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لمَا اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تَحسُن أبدا، أو لا تحسن أبدا. ولم تر قولا يضطرب على قائله حتى لا يدري كيف يُعبّر، وكيف يورد

---

١ نفس المرجع، ص: ٦٠

٢ المرجع السابق، ص: ٤٢

٣ نفس المرجع، ص: ٤٠

يُصدر".[١]

فيظهر لنا أن الكلمة تجلب قيمتها ومزيتها من خلال ملاءمتها مع غيرها في الجملة، فالكلمات جثث هامدة لا حياة فيها إلا في التركيب الكلامي، وأن التفاضل بينها مبني على مواءمتها مع غيرها من الكلمات في سياق الكلام.

وجدير بالذكر هنا أن الجرجاني رد كل من أهمل السياق في دراسة النصوص، فقال عنهم: "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في **سياق لفظه**، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجّة وبرهان، وصفة وتبيان"[٢] فعدم الاكتراث بالسياق يؤدي إلى الخطأ في فهم النصوص الشرعية.

هذا، ولا يعني أن الجرجاني أهمل في مراعاة السياق الخارجي فقد اعتنى به الجرجاني أيضا وأشار إلى أهميته في مواضع كثيرة، كما أوضح دوره في تحديد الدلالة وترجيح معنى على معنى آخر. فعلى سبيل المثال؛ مسألة الحذف والمجاز حيث يرى إنه لا يقال بالحذف ولا بالمجاز إلا إذا دل عليه السياق، وفيه يقول: "فإذا قلت: ((رأيت أسدا)) صلح هذا الكلام لأن تريد به أنك رأيتَ واحداً من جنس السبُعِ المعلوم، وجاز أن تريد أنك رأيتَ شجاعاً باسلاً شديد الجُرأة، وإنما يفصل لك أحدَ الغَرَضين من الآخر شاهدُ الحال، وما يتَّصل به من الكلام من قبل وبعد."[٣] فالحَكم في تحديد دلالة الكلام ومعناه هو سياق المقال وسياق المقام.

---

١ نفس المرجع، ص: ٤٨

٢ نفس المرجع، ص: ٣٦

٣ أسرار البلاغة، ص: ٢٤١

ومما يبرز اهتمام عبد القاهر الجرجاني بالسياق الخارجي اعتنائه بالظروف الخارجية عند دراسة النص، وفيه يقول: "ألا ترى أنك لو رأيت **((اسأل القرية))** في غير التنزيل، لم تقطع بأن هاهنا محذوفا، لجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية قد خربت وباد أهلها، فأراد أن يقول لصاحبه واعظا ومذكّرا، أو لنفسه متعظا ومعتبرا اسأل القرية عن أهلها، وقُل لها ما صنعوا، على حد قولهم: سل الأرض من شق أنْهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإنها إن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا وكذلك: إن سمعت الرجل يقول: ليس كمثل زيد أحد، لم تقطع بزيادة الكاف، وجوزت أن يريد: ليس كالرجل المعروف بمماثلة زيد أحدٌ".[١]

وهكذا يأخذ الجرجاني بعين الاعتبار جميع القرائن الداخلية والخارجية في دراسة النص، وبكل ما له علاقة بالنص من حال المتكلم وموضوع الكلام والمخاطَب.

الخلاصة

نستخلص مما سبق بأن البلاغيين العرب، هم من أقدم العلماء الذين توسعوا في دراسة السياق وتحديد الدلالة من خلاله، كما عرفوا أهمية السياق في الدرس البلاغي فانطلقوا في مباحثهم البلاغية حول فكرة السياق وربطها بالصياغة البلاغية. ومن ثم عنوا بالسياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي. أما عنايتهم بالسياق اللغوي فتظهر عنايتهم بدراسة تراكيب الجمل أو النص وهو ما سماه الجرجاني ((النظم)). وكذا من خلال حديثهم عن الفصاحة على مستوى هذا التركيب. وأما اعتناء البلاغيين بالسياق غير اللغوي فيتلخص في عبارة ((لكل مقام مقال))، فالفصاحة والبلاغة لا توصف بها الكلام إلا إذا كان موافقا بالمقام بما أنهم كانوا مدركين تمام الإدراك أن اللغة ظاهرة اجتماعية ولها شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلّمها فلذا قالوا: ((لكل مقام مقال))، و((لكل كلمة مع صاحبتها مقام)).

---

١ أسرار البلاغة، ص: ٤٢١، ٤٢٢

المصادر والمراجع:

١. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، دار صادر-بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ.

٢. إبراهيم مصطفى. أحمد الزيات. حامد عبد القادر. محمد النجار، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشرق الدولية، مصر، ط:٤، ٢٠٠٤

٣. أبو عبيد، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي، غريب الحديث، المحقق: د. محمد عبد المعيد خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، الطبعة: الأولى، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

٤. ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، فتح الباري، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

٥. الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، الموافقات، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٦. السامرائي، د. فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية والمعنى، دار ابن حزم- بيروت، الطبعة: الأولى (٢٠٠٠م).

٧. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ.

٨. د. تمام، تمام حسان عمر، اللغة العربية معناها ومبناها، دار عالم الكتب، القاهرة، ط:٥، (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م).

٩. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال- بيروت، عام النشر: ١٤٢٣هـ.

١٠. خطيب القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، الإيضاح في علوم البلاغة، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل-بيروت، الطبعة: الثالثة

١١. . أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، الصناعتين؛ الكتابة والشعر، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية-بيروت، عام النشر: ١٤١٩هـ.

١٢. السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

١٣. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، الحيوان، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.

١٤. أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المحقق: د. عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٥. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.